الوهم الضائع

قصة بقلم الدكتور جميل جبر

عاد الى غرفته مضطربا ذلك الليل ، كان طيفها ينغص هدوءه . ما كان ليصدق ان ذاك الوجه وجه فتاة ، انه شرارة من شمس ، من نجمة ، انه بعض موهمات السحر .

الشعر الاشقر البراق المنساب على كتفيها ، يتوج جبينها بخصلة تائهة ، أوليس خيوطا من مزيج الحرير بالابريز . ان ان الحقائق ما يتجاوز التخيل .

لا أدري ما يخامرني بعد هذا اللقاء الخاطف . أحس بعض انخساف في موقع القلب ، أو بعض تحول في نظرتي الى الاشياء . صرت أقارن كل ما تبصره عيني بالرونق الوهاج الذي اخترق صميمي فاراه ناصلا فيه صدأ الجمود . الحركة ، الحيوية ، النور ، الجاذبية كلها تنطلق من الخيوط المشعة فوق رأسها ، كل ما عداها ظلام .

جلس الى طاولته يتخيلها ، يصورها ، يحاول ان يعكس ، باللون الاصفر البراق ، وهج شعرها وانسيابه وموكب الاحلام .

اشعل سيكارة راقب دخانها ساهما . تذكر ، كيف يبدأ ، كيف ينتهي ! لا فرق ، هي كالهلال طرفاه متشابهان لا بدء ولا نهاية . هي البدء والنهاية . واذا الخطوط تتحول ألوانا تحت لمسته الرشيقة ، واذا هو يلهث كأنه يركض وراء سراب .

لا . اللون باهت . لا اشراق فيه ، لا حرارة . مزقه ، تنهد . قد تكون المحاولة الثانية انجح . لكن لا. مستحيل . انّى للجامد أن يجسد الحياة المتحركة . ستبقى الصورة جسما بلا روح ، لماذا لا أسعى الى رؤيتها من جديد . لكنها تركت المقهى ، ربما عادت الى بيتها ، أو مضت في نزهة . ربما تعود . فلاذهب ، حتى ان لم تعد فقد أشم عطرها ، قد أحس رجع تموجات شعرها . هل يمكن ان لا يبقى منها شيئا حيث كانت . الشمس اذ تغيب تترك خلفها شعاعا يستمر الى حين ، لا سيما في عشايا باريس ، ومع الشعاع بعض حرارة تذكر بها. هيا الى المقهى !

تناول مشطه ، نسق شعره امام مرآة ظللها الغبار ، نفضه ليتقن تسريحته . راح يدندن لحنا عزيزا عليه ، « ليالي النشوة » ، وهو يغلق الباب وراءه .

لم يكترث كثيرا للمطر المتساقط ولا لزحمة الناس على الرصيف. شق طريقه بحزم ، لا يرى الا نجمة شقراء في سماء أحلامه تقوده الى الهدف .

جلس في المقاعد الامامية المطلة على الشارع في مقهى « البرق » حيث شاهدها قبل ساعتين . تطلع حواليه ، استدار . تمايل ، لم يرها ، لكنه لم يضجر . قد تأتي . الليل طويل . كانت لا تزال في خياله على ذلك الكرسي . تصورها كيف هزت رأسها فتهدل شعرها وتماوج وهي تتناول الوسكي . تخيل نظراتها تنشرها على الحاضرين فيحسب كل منهم انها مصوبة عليه وحده . كاد يسمع صدى صوتها الحار وهي تخاطب رفيقة لها . ليتني حاولت ان اتحدث اليها لاعرف اسمها وعنوانها !

هزز رجليه كأنه في مرقص . شرب أول كوب من البيرة ثم الثاني فالثالث وهو في شبه غفلة عن القادمين والذاهبين رغم كثرتهم في ذلك المركز المهيأ لعقد المواعيد . لم يخطر له حتى ان يلتفت الى ساعته مع انه تعود ان يبرمها بنظراته . الانتظار لم يبعث فيه ملل ذلك الليل لكن للمقهى مواقيت محددة ، حتى في قلب باريس .

ما انتبه الى الساعة تدق الثالثة فجرا الا عندما جاءه رئيس الخدم يطلب تسديد الفاتورة . كان المقهى قد أقفر الا منه . دفع الحساب مضاعفا وهو يسأل بشيء من الخفر : من هي ذات الشعر الذهبي الوهاج التي كانت هنا عند الساعة السابعة ؟

ابتسم الرجل الفليظ السافين المشطوب الوجه ورمقه بنظرة فيها بعض شفقة : ما اكثر الشقراوات عندنا ، وكيف لي ان اعرفها !

ـ لكنها ليست كغيرها ، شعرها خيوط من العسجد و ....

قاطعه وقد أدرك ضعفه فحاول ان يستفيد منه : اجل عرفتها لكني نسيت اسمها . انها تأتي اكثر الامسيات في مثل تلك الساعة . عد غدا فقد تجدها .

نهض يملؤه الامل بالغد وفي عينيه لون اشقر مطبوع من شعرها البراق . عاد الى غرفته وهو في حوار معها ، مع نفسه ، مع آفاق الاماني الرحيبة . ودندن من جديد نغم « ليالي النشوة » منتظرا فردوسه المضيع .

* * *

عند الساعة الرابعة بعد الظهر عاد الى المقهى مصمما على الوصول اليها ، يحمل كدسة من الصحف يقلبها ، ينظر اليها فلا يرى شيئا . كان كلما سمع نقرة ناعمة على الرصيف حسبها وقع خطاها . طلب قهوة مرة ثم عصيرا ثم وسكي . لم يتزحزح من مكانه . تسمر على

كرسيه لا يتحرك فيه الا عيناه وكانهما من زئبق والرجلان يهززهما باستمرار ، يتعجل كر الزمن .

وفجأة يفرك عينيه ، كأنه يفيق من حلم ، هذه هي بشحمها ولحمها تدخل . شعرها الذهبي يتماوج . يتلالا ، يتوهج ، يشع . الجو كله يتحول الى وهج . ألقت نظرة سريعة على الحاضرين ، استعرضتهم ، ثم جلست الى الكرسي بجواره ، الكرسي الوحيد الباقي فارغا ، لانه وضع عليه كدسة الصحف فنقلها بخفة وهو يبش لها ، يخاطبها بعينيه ، يدلها على قلبه المشتعل .

فتحت محفظتها ، تمرت ، صححت حمرة شفتيها ، ألقت عليه نظرة لم يفهم لها معنى ، لكنه حمّلها كل معنى ، وخرجت .

أخذه الذهول فنهض نوا ، وقد ترك على الطاولة الحساب المطلوب ومضى في أثرها ، شجعته التفاتاتها على اللحاق بها فشجع.

قد تكون احدى الغانيات ، ما همّ ! انها جذابة أفتدنني وعيي . لا بد من الوصول اليها مهما كلف الامر . ولكن كيف يبدأ حديثه معها . يسألها عن شارع ما ، عن فندق ، عن مخزن .

سار قربها كانه يلامسها . ابتسمت له تبدأ هي الحوار ، تلعثم في السؤال . فسألته هي : من انت ... ماذا تريد ؟

ـ متيم بك مسحور ، أتريدين أن نتعشى معا ؟
ـ انت من الشرق ؟
ـ نعم .
ـ هل قرأت الف ليلة وليلة ؟
ـ حفظتها عن ظهر قلبي .
ـ اني أعشق شمس الشرق .
ـ وانا أعشق شمسك . هيا بنا نتعشى في مكان ما !
ـ لكن عندي مواعيد .
ـ اتركيها الى الغد !
ـ مواعيد عمل . بضيع عليّ مبلغ مجترم .
ـ أعوضه عليك اضعافا .
ـ لكني لا استطيع ان اتأخر كثيرا . فلندخل هذا المطعم .
ـ لا بأس .

ها هما في زاوية نائية في المطعم ، وقد أخذت تخفت انواره ، يتساقيان الخمر ويتناجيان .

كانت عيناه تلتهمان شعرها . تتفجران شوقا الى لمسه . يحاول ان يمد يده اليه فتدفعه فيزداد تلهفا .

انطفأت مصابيح الكهرباء . لم يبق الا ضوء الشموع ، ازداد شعرها سطوعا ، وازداد هو تحرقا للتشبث به . لكنها قد تصده وتغضب فتفلت منه . لا بد من التريث .

طال انتظاره ، اشتدت سكرته ، تعددت مجالات الحوار بينهما وتشعبت حتى أيقن انها قريبة المنال .

وكانت منها التفاتة عابرة الى الوراء ، فاذا به وقد استولى عليه هاجس الامساك بشعرها ومضغه والتهامه ، يمد يده بسرعة الى خيوط الذهب المتدلية على عنقها ، المتمردة على جبينها ، المشحونة بالحرارة والنور . أرسلت صرخة استغاثة . رفع أصابعه بنزق وقد التصقت بها خيوط الابريز المستعارة ومعها الحلم الاشقر الوهاج .

هب مجنونا من مكانه ، غادر المقهى وهو يهذي : يا له من كابوس ! هل كنت صاحيا حقا ؟

تقززت احشاؤه . أحس بما يشبه وخز الشوك في اصابعه التي لامست الشعر المذهب الوهاج وأحس بما يشبه طعم الرماد يمازج ريقه فيبعث في حلقه جفافا يجمد اللسان .

بيروت — جميل جبر

أحلام على الرصيف المجروح

رواية

الدكتور بديع حقي

بعد مجموعته القصصية (التراب الحزين) التي نالت جائزة الدولة للقصة عام ١٩٦١ ورواية (جفون تستحق الصور) عام ١٩٦٧ .

تأتي روايته هذه الجديدة ، لتجلو لنا مأساة الانسان الفلسطيني ، المعذّب المشرد ، الممزّق ، يحن الى ارضه البعيدة ، حنينا دائبا ، متصلا .

الاسلوب ، يتجلى في صفائه الذي الفناه لدى هذا الكاتب العربي ، في غناه بالصور المعبرة الشعرية ، انه يتخذ في هذه الرواية منحى متميزا ، معتمدا على الحوار الداخلي . تنساق في مطاويه ـ كما يقول الكاتب في مقدمته ـ دقات خفيفة ، منتزعة من اي دقة تصافح السمع ، لتنفض الذكريات ، متناغمة متجاوبة كأنها نغم منفرد في سمفونية رحبة طويلة .

منشورات دار الآداب

صدر حديثا — ٤٠٠ ق . ل